مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد ٩، العدد ٣٤ (ربيع ١٩٩٨)، ص ١٢٥

الشهادة الثالثة[١]

"لحظة واحدة عرفنا فيها معنى الفرح؛ عندما
مرّ عبد القادر الحسيني مع رجاله"

– الاسم: رابعة حسين العسعس (زوجة محمد نصير)
– العمر: ٦٨ عاماً
– مكان الإقامة الحالي: عمّان/الأردن
– البلد الأصلي: لفتا/قضاء القدس
– تاريخ الاحتلال: ١١ .١٣/١/١٩٤٨

أذكر ذلك اليوم الذي اندلعت فيه النيران في منطقة الشماعة على الطريق بين لفتا والقدس، واحترقت محال اليهود الواقعة هناك. وقد عمّ الدخان الأسود الكثيف سماء قريتنا، وتطايرت في أفقها مزق الأقمشة المحترقة.

وفي فوضى الحرائق، كان الإنكليز يخلعون أبواب المحال اليهودية التي لم تصبها النيران، ويحرضون العرب على نهبها، كي يعطوا مبرراً لهجوم اليهود علينا.

لم يطل الوقت حتى رأينا مجموعات كبيرة من اليهود المسلحين تتدفق إلى المنطقة. كانوا يستقلون الحافلات ويعتلون سطوحها، مطلقين هتافات ضد العرب ومتوعدينهم بالموت.. وهو ما أثار الرعب في القرية بين النساء والأطفال.

في الليل، شرعت مجموعات من "الهاغاناه" في التسلل إلى أطراف القرية، وفي إطلاق نوع من القنابل تزيد ليلنا عتمة. يبدو أنهم كانوا يروننا من دون أن نتمكن نحن من رؤيتهم!

كان الثوار من أبناء القرية يتصدّون لهم بين أشجار الصبار على أطراف القرية وفوق سطوح المنازل. وكانت دبابات اليهود تقترب عندما تصدت لها مجموعة من المقاتلين الذين كمنوا فوق أحد المنازل، فانهالت عليهم قذائف الدبابات التي جعلت

[١] أعدّها فاروق وادي. وقد أُجريت المقابلة في عمّان، في شباط/فبراير ١٩٩٨.

جثث بعضهم تتطاير في الفضاء، وجثث بعضهم الآخر تنطمر تحت ركام البيت الذي سقط بهم. كان الشهداء كلهم، أو معظمهم، ينتمون إلى عائلة سعد.

تزايدت تحرشات اليهود بالقرية، بعد حادثة ضرب قطار كان يقل عدداً كبيراً منهم. وكان القطار منطلقاً من محطته في القدس متوجهاً إلى الرملة واللد مروراً بالبقعة، قريباً من قريتنا..

بعدها، هاجمت مجموعة من عصابة الهاغاناه عدداً من رجال القرية الذين كانوا يجلسون في مقهى القرية الواقع في شارع يافا. ترجل رجال العصابة من سيارتهم وفتحوا نيران أسلحتهم الرشاشة على رجالنا، فسقط أربعة عشر رجلاً دفعة واحدة، أذكر منهم عبد علي صقر وأولاده، وعطا بكر، ومحمود عيسى، وحربي.. وكثيرين آخرين!

كانت العملية حدثاً مؤلماً أصاب قريتنا، وأشاع جواً من الحزن والرعب فيها..

استمرت المناوشات اليومية بين اليهود المدججين بالسلاح، والذين كانوا يهبطون قريتنا من المستعمرة القريبة، وبين رجالنا، بما توفر لهم من أسلحة قليلة. أمّا نحن النساء، فقد كانت أسناننا تصطك خوفاً كلما تناهت إلينا أصوات القذائف والرصاص. ولذلك، اقترح الرجال إخراج النساء والأطفال من القرية وبقاء المسلحين وحدهم فيها بهدف حمايتها.

رشيدة نصير، وكانت تجاوزت الستين، هي المرأة الوحيدة التي رفضت بعناد الخروج مع النساء، وأصرت على البقاء في بيتها مصممة على ألاّ تبرحه. ظلّت هناك أكثر من شهر.. وحيدة، حتى بعد انسحاب المسلحين ومغادرة آخر الرجال للقرية واحتلالها من قبل اليهود. لا ندري كيف عاشت وحيدة وكيف تدبرت أمورها. غير أن الإنكليز جاؤوا إليها وأرغموها على الخروج من بيتها. أخذوها إلى القدس، وبحثوا طويلاً عن أهلها، حتى وجدوهم في بيت جالا. كانت آخر من عاش في لفتا، وآخر من غادرها.

عندما التقيناها، روت لنا كيف أنها كانت متوارية، تراقبهم عن بُعد وهم ينهبون البيوت. قالت لي أنها رأتهم وهم ينقلون المرآة الكبيرة التي اشتروها لي يوم زفافي، وكيف أن ضوءها كان يلمع فيخطف بصرها.. حتى توارت المرآة في "الكوبانية". أمّا هدايا ومشتريات زواجي الصغيرة والغالية، فكنت خبأتها في أكوام الزبل التي كنا نستخدمها في الزراعة وإيقاد الطوابين. لم أكن أحسب أن اليهود عندما

يدخلون لفتا، سيقومون بإحراق الزبل. لقد رأينا دخان الحرائق يملأ السماء ونحن في المالحة. وضاعت كل أشيائي في ذلك الحريق.

كان زوجي، محمد نصير (أبو سفيان)، يمتلك شاحنة نقل "شفورليه" ويعمل عليها. ولذلك، تحدد دوره في نقل أكبر عدد ممكن من النساء والأطفال إلى قرية المالحة القريبة، والتي تربطنا بأهلها علاقات قرابة ونسب.. ولكم كان أهل المالحة كرماء معنا. فقد تركوا لنا بيوتهم وعاشوا خارجها. نحن سكنّا عند ناس يقال لهم دار أبو زهرة، الذين أسكنونا في بيتهم وسكنوا هم في مطبخ يقع خارج الدار.

في الطريق إلى المالحة لاحقونا بزخات الرصاص التي أصابت عدداً من البشر الهاربين فوق ظهور الشاحنات. أم زكي فقدت ابنها وهو في حضنها جرّاء رصاصة أصابته. آخرون قتلوا أو جرحوا.

بعد أيام قليلة، جاءتنا ونحن في المالحة أنباء سقوط لفتا واحتلالها.. وتأكد الأمر بانسحاب رجالنا منها بعد نفاد ذخيرتهم.

لحظة واحدة، وحيدة، مرّت بعد ذلك اليوم، عرفنا فيها معنى الفرح وتذوقنا طعم الأمل. كان ذلك عندما مرّ بقلب المالحة القائد عبد القادر الحسيني مع رجاله متوجهين إلى باب الواد. والله إنني رأيته بأم عيني وهو يجلس في سيارة الجيب بين جنوده. وعندما رآه الناس، اندلع رصاص رجال المالحة مرحباً به وبرجاله..

غير أن الفرحة لم تكتمل. بل إنها تحوّلت في اليوم التالي إلى مأتم كبير، بعد أن جاء الخبر باستشهاد عبد القادر الحسيني في معركة القسطل. لقد أصيب الناس بصدمة كبيرة، وعم حزن شديد.. وظل الناس يبكونه بحرقة عدة أيام...

بقينا في المالحة شهراً أو ما يقارب الشهر. لكن المالحة هي الأُخرى لم تنج من الهجوم. وكانت وصلتنا هناك أنباء المجزرة في دير ياسين. قيل إنهم "عجَّبوا" بأهلها، فشقوا بطون النساء الحبالى، وألقوا بالرجال أحياء في آبار المياه، وقتلوا الأطفال أمام أمهاتهم، واعتدوا على الصبايا..

حملنا أنفسنا من جديد وركبنا الشاحنة نفسها، كانت السيارة الوحيدة في المالحة، ولذلك امتلأت بالنساء والأطفال الذين تشبثوا بها. أمّا رجال لفتا المسلحون فانضموا إلى ثوار المالحة للدفاع عن القرية التي آوتنا.

لحسن الحظ وجدنا طريقاً جبلياً ضيقاً، شجرياً وآمناً، قادنا إلى بيت جالا، حيث منحنا وجود الجيش المصري فيها إحساساً بالأمن والحماية. وقد عزّز هذا

الإحساس أن الجيش المصري كان استعاد قريتين من أيدي اليهود، على الرغم من أنه تعرّض فيما بعد لهجوم يهودي كبير عندما دخل قرية اسمها مار الياس، حيث استشهد عدد كبير من الجنود المصريين.

بقينا في بيت جالا نحو عام. كان زوجي أبو سفيان ما زال يعمل على شاحنته، الأمر الذي وفّر لنا دخلاً معقولاً مكننا من العيش في تلك الأيام. وعلى الرغم من اعتداءات اليهود المتكررة على القرية، فإننا لم نكن نفكّر في مغادرتها هذه المرة، على الأقل كي نظل قريبين من لفتا التي لم نفقد الأمل بالعودة إليها!

في تلك الفترة، لم أكن أعرف أن زوجي أبو سفيان بدأ يعمل مع الثوار، وأن شاحنته أصبحت تُستخدم في نقل السلاح تحت شحنات البرتقال، من غزة عبر بئر السبع وصحراء النقب إلى الخليل.. حتى جاء يوم طالت فيه غيبة الرجل أكثر من المعتاد. كان أخذ معه أخويه صبحي وشحده إلى غزة لنقل شحنة برتقال، غير أنهم تأخروا عن موعدهم أكثر من أسبوع، من دون أن يصلنا منهم خبر يفيد أنهم ما زالوا أحياء، فساورتنا الشكوك في أن مكروهاً لا بد من أن يكون جرى لهم. قلنا إنهم لن يعودوا أبداً.. فنصبنا المناحة، وبقينا نبكيهم كما لو أنهم ماتوا!

بعد أيام، "شال" الغمة عن قلوبنا صوت متواصل لـ "زمّور" شاحنة تعبر البلدة منطلقة بسرعة، عرفت أنه "زمّور" شاحنتنا. إذاً، فقد عادوا أخيراً بسلام. فانطلقنا في استقبالهم، وانطلقت الزغاريد تعمم الفرحة.

روى لي أبو سفيان، فيما بعد، أن الشاحنة التي كانت تحمل الأسلحة والبرتقال أصابها عطل مفاجئ في مكان يقال له إسدود، من دون أن يتمكن أحد من إصلاحها هناك، أو إيجاد بديل من القطعة التي تعطلت فيها. لذلك اضطر أبو سفيان وأحد أخويه إلى السفر طويلاً حتى القدس، بصعوبة بالغة، من أجل إحضار قطعة الغيار المطلوبة، مع بقاء الأخ الثالث في الشاحنة لحراستها والحفاظ على ما فيها. وقد استغرقت رحلتهم، وإصلاح الشاحنة، وقتاً طويلاً.. لكنهم عادوا سالمين. وقد سقطت إسدود في أيدي اليهود بعد أن غادروها!

أصر والد زوجي على الانتقال إلى عمّان. لم يكن أبو سفيان يرغب في ذلك. لم يكن يرغب في مغادرة بيت جالا القريبة من لفتا. اختلف مع والده، غير أنه استجاب أخيراً لرغبة الوالد، إذ كان يريد اللحاق ببعض أهالي لفتا الذين توجهوا إلى عمّان..

وكان بعضهم يمتلك أراضي واسعة فيها، وله مصالح هناك. قال: "نلجأ إليهم حتى تعود البلاد."

لم تعد البلاد، ذهبت إليها مرة في زيارة قبل نحو عشرين عاماً. مشيت في الأرض بين الخراب كأنما الطرقات والبيوت ما زالت في مكانها هناك ولم تندثر. توجهت مباشرة إلى المنطقة التي كان يقع فيها بيتنا. اسم المنطقة روميما. عرفت مكان بيتنا من شجرة التين، شجرة التين كانوا قد قصّوها.. لكنها على الرغم منهم أطلقت وتفرعت. صحت بمرافقي وأنا أشير إلى مكان على الأرض: "هذه دارنا.. هذه دارنا." سمعني يهودي كان يقف قريباً منا، فأخذ يردد متبرماً: "أووه.. ووه.. دارنا.. دارنا. كلكم تأتون وترددون هذه الكلمات." نظرت إليه ولم أنطق بكلمة! ■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf